المحاضرة الثالثة: المدرسة الأمريكية

شهد النقد الأدبي والدراسات الأدبية مع بداية القرن العشرين تحولا جذريا فقد تراجعت الفلسفة الوضعية التي سادت في القرن التاسع عشر لتخلفها أطروحات فلسفية ونقدية جديدة أسست لانطلاق ثقافة مغايرة، حيث ظهرت المدرسة الشكلانية الروسية التي أدركت مدى الإقصاء الذي عانى منه النص الأدبي، فهيأت الطريق أمام بعض النقاد الأمريكيين لمعاودة قراءة الدرس المقارن برؤية جديدة، فظهر مركز ينقل الدرس النقدي من العلاقات الخارجية للعمل الأدبي أي علاقته بشخصية الأديب وسيرته وعلاقته ببيئته الاجتماعية والثقافية إلى العلاقات الداخلية للعمل الأدبي أي الاهتمام ببنيته الفنية والفكرية والجمالية، بدلا من الاستغراق فيما هو خارج عن حدود النص ولا يخدم الدراسة الأدبية في شيء، بل أقحموا ما هو خارج عن الأدب كعلم النفس والسياسة والتاريخ والفلسفة...فغدا الأدب وسيلة لتقديم بيانات وحقائق خارجة عنه كما يقول بوريس إيخنباوم "إن الأدب شأنه شأن أي نظام معين للأشياء لا يتولد من حقائق تنتمي لأنظمة أخرى ومن ثم لا يمكن اختزاله إلى هذه الحقائق إن العلاقات بين حقائق النظام الأدبي والحقائق الغريبة عليه لا يمكن ببساطة أن تكون علاقات سببية لكنها يمكن أن تكون فقط علاقة تقابل أو تفاعل". فعمدت المدرسة الأمريكية على تقويض ونقد رؤية المدرسة الفرنسية وقدمت بديلا.

1. التعريف بالمدرسة الأمريكية

لم تلتفت الولايات المتحدة الأمريكية إلى الأدب المقارن إلا في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، حيث وجدت نفسها ملزمة بتغيير مقاربات الدرس المقارن وأن تخضعه إلى المواضعات والمنظورات الثقافية المتجددة وأن تتجاوز المواقف الضيقة للدرس الأوروبي. مستفيدة من الأخطاء التي وقعت فيها المدرسة الفرنسية فانطلقت من ثلاث مقولات أساسية:

أ. مقولة أخلاقية: ترى أن جميع الآداب والثقافات المختلفة متساوية في القيمة والعطاء، ترفض تميز أدب على أدب، أو ثقافة على ثقافة.
ب. مقولة سياسية: تنادي بالانفتاح على الآداب والثقافات المختلفة.
ت. مقولة نقدية: تقول بوحدة الظاهرة الأدبية على اختلاف فضاءاتها الزمانية والمكانية واختلاف حدودها القومية واللغوية.

يعود الفضل لظهور الأدب المقارن في أمريكا إلى سنة 1958م حينما نشر رينيه ويليك محاضرته الهجومية الموسومة بـ"أزمة الأدب المقارن" في كتابه "نظرية الأدب المقارن" والتي انتقد فيها بشدة رؤوس الجيل الأول من المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن، وأخذ عليهم ولعهم بمنهجية القرن التاسع عشر وبحقائق العلوم النسبية

والتاريخية، وتركيزهم على المظاهر السطحية للأديب حيث يتم الانشغال بالترجمات الأجنبية التي أثرت في بعض الكتاب دون الإحاطة بعبقريته، ودعا إلى الالتزام بأهداف البحث الأدبي المقارن والمتمثلة في وصف العمل الفني وتفسيره. فأصبح الناقد الأدبي المقارن لا يدرس "مجنون وليلى" لأحمد شوقي و"روميو وجوليت" لشكسبير بهدف إثبات ما يدين به أحمد شوقي من تأثير بشكسبير، وإنما أصبح الهدف هو وضع كل مسرحية منهما في مقابل الأخرى وعلى قدم المساواة لفهم التشكيل الجمالي والبنيات الفنية لكل واحدة.

2. تعريف الأدب المقارن

عرفت المدرسة الأمريكية الأدب المقارن:"بأنه البحث والمقارنة بين العلاقات المتشابهة بين الآداب المختلفة بعضها والبعض الآخر، وبين الآداب وبقية أنماط الفكر البشري من فنون وعلوم إذ يعتبرون التفكير البشري كلا متكاملا ومتداخلا، ولا يمكن فصل الإنتاج الأدبي عن غيره من أنماط الإنتاج الفكري الأخرى من علوم وفنون.

3. رواد المدرسة الأمريكية

يعود الفضل في بلورة التفكير الأمريكي في الأدب المقارن إلى العلمين البارزين: رينيه ويلك وهنري ريماك.

أ. **رينيه ويليك: وضع رينيه ويليك يده عل أزمة الأدب المقارن لدى المدرسة الفرنسية وأرجعها إلى النقاط التالية:**

1. **افتقادها إلى تحديد موضوع الأدب المقارن ومناهجه.**
2. **خضوعها تحت سيطرة النزعتين التقليديتين الوضعية والتاريخية.**
3. **تغليب العناصر القومية والحدود السياسية والجنسية على العمل الأدبي في الدراسة.**
4. **المبالغة في إثبات مظاهر التأثير والتأثر بين أدب وآخر.**

واقترح بدائلا للخروج من هذه الأزمة حيث ألغى الحدود السياسية والجنسية وغيرها ليحل محلها الحد الإنساني والوعي بالقيم في دراسته للأدب، بدل الاهتمام بالأحداث التاريخية الجامدة. وطرح قضية إنسانية الأدب المقارن لأن الأدب المقارن نشأ في الأصل ضد القومية الضيقة التي أوصلت أوروبا إلى حرب لا تنتهي، ولكن هذه الرغبة في توظيف الأدب المقارن كوسيط بين الشعوب فقدت معناها عندما حاول بعض المقارنين تبيان ما

لأمتهم من فضل ثقافي على الأمم الأخرى، عن طريق إثبات أكبر عدد من التأثيرات التي أثرتها في الشعوب الأخرى.

ب. **هنري ريماك:** لم يتابع رينيه ويليك الشوط بسبب انشغاله بتخصصه الأساسي في النقد والتاريخ الأدبي، ليتابع نظيره هنري ريماك قضية الأدب المقارن متابعة متخصصة. حيث صرح بأنه لا ينبغي النظر إلى الأدب المقارن على أنه نظام مستقل بذاته بل يجب النظر إليه على أنه حلقة وصل بين الموضوعات أو المجالات الخاصة بموضوع واحد، لذا فإنه من الممكن إجراء مقارنة بين أدبين أو أكثر، أو بين أدب ومجالات أخرى: كالرسم، والموسيقى، والنحت...وغيرها لإدراك التمايز بين الفن القولي والفنون السمعية البصرية الأخرى.

4. خصائص المدرسة الأمريكية

1. تفادي المآخذ التي أخذت على المنهج الفرنسي.
2. ينبغي أن تهتم الدراسة المقارنة بدراسة القيم الأدبية التي يمكن أن تلعب دورا إيجابيا خير من دراسة العلاقات التاريخية.
3. دراسة الظاهرة الأدبية في شموليتها دون مراعاة للحواجز السياسية واللسانية.
4. عملت المدرسة الأمريكية على ملاحقة العلاقات المتشابهة بين الآداب المختلفة فيما بينها وبين أنماط الفكر البشري معتمدة في ذلك على المزاوجة بين الأدبي والفني، لأن الهدف الأساسي ليس إثبات التأثير والتأثر بقدر ما هو بلوغ البنية الجمالية والتشكيلية للنص المقارن.
5. الدعوة إلى تطبيق منهج نقدي في الأدب المقارن والتخلي عن المنهج القائم على حصر ما تنطوي عليه الآداب من مؤثرات أجنبية وما مارسته على الأعمال الأجنبية من تأثير.
6. الدعوة إلى جعل الدراسات المقارنة تدرس العلاقات القائمة بين الآداب من ناحية وبين مجالات المعرفة الأخرى.
7. ملاحقة العلاقات المتشابهة بين الآداب المختلفة وفقا لمفهوم التوازي. وهي نظرية تقوم على افتراض وجود سمات مشتركة بين الآداب المختلفة للشعوب التي تتطور اجتماعيا بطريقة متماثلة.

5. مآخذ المدرسة الأمريكية

تعرضت المدرسة الأمريكية مثلما تعرضت المدرسة الفرنسية قلبها إلى أخطاء وقصور فوجهت إليها العديد من الانتقادات:

1. **لم تستطع المدرسة الأمريكية التفريق بين الأدب العام والأدب المقارن.**
2. **إن تعريفات المقارنين الأمريكيين للأدب المقارن لا تتسم بالتكامل.**
3. **ألغت النزعة الأمريكية شرط اختلاف اللغة لأنها لا تملك لغة رسمية، لكي تصبح المقارنة بين الأدبين الأمريكي والإنجليزي.**
4. **تنوع تعاريف المقارنين الأمريكيين ومزاوجتها بين الأدبي واختصاصات أخرى.**
5. **أرادت أن تكون مفهوما واحدا لأدب إنساني واحد يشمل جميع الآداب الإنسانية دون اعتبار للخصوصية الزمانية والمكانية لكل أدب قومي على حدة، ولكل عمل أدبي على حدة، فالأديب العربي يفكر وهو يكتب للعرب قبل أن يتوجه بخطابه الأدبي إلى الآخرين وهكذا الفرنسي والإنجليزي...**
6. **حصر الأدب في الخصائص الجمالية والفنية يجعله يقتصر على الحدود الشكلية فلا يلتفت إلى قضايا مهمة في التحليل الأدبي مثل علاقة العمل الأدبي بالمجتمع وقضاياه.**
7. **النظرة الخاصة إلى الأدب الغربي كفضاء متميز داخل حقل الدراسات المقارنة.**

في الأخير يمكن القول أن المدرسة الأمريكية لم تظفر بكتاب كامل بالإنجليزية في الأدب المقارن وما ألف إلا مجرد مقالات فقط، أظف إلى ذلك أنها لم ترفض كل مبادئ المدرسة الفرنسية بل اعتمدت معظمها.